

قراءة في بنائية الرسائل الديوانية في العهد الرستمي

A reading of the structural of official(Diwani)letters in Rustamid era

ناصر بوصوري*

¹ المركز الجامعي - آفلو (الجزائر) n.boussouri@cu-afrou.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2025-09-18 تاريخ القبول: 2025-10-10 تاريخ النشر: 2025-12-14

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة إلى استقصاء البنية الشكلية والمضمونية للرسائل الديوانية التي عرفت في العصر الرستمي. وتتناول الدراسة بالتحليل الجوانب الشكلية للرسائل، وتقف على خصائصها البنائية في مقدماتها ومضامينها وخواتمها، وذلك بدراسة المقدمات التي كانت تتضمن الدعاء والثناء والبسملة، وانتقالاً إلى المضامين التي تشمل التوجيهات السياسية والدينية، والخواتيم التي غالباً ما تختتم بالدعاء والسلام أو الأمر المباشر. وتطرح الدراسة إشكالية مركزية تتمثل في: مدى توفر نماذج نظرية ديوانية حقيقية خلال فترة الدولة الرستمية؟ وما مدى التزامها بالبناء النثري المعروف في أدب الرسائل؟ تعتمد الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، متوسلة بالمصادر التاريخية والأدبية التي أرخت لهذه الفترة، وعلى رأسها كتاب "الأزهار الرياضية" و"تاريخ الأدب الجزائري".

وتبرز أهمية الدراسة في كونها تلقي الضوء على شكل من أشكال التواصل الرسمي في تلك الدولة، في ظل الندرة الواضحة للنصوص المحفوظة من ذلك العصر. وتخلص الدراسة - من خلال القراءة في بنائية الرسائل الديوانية في العهد الرستمي، ومن خلال البحث في خصائص هذه الرسائل الديوانية في المقدمات والمضامين والخواتيم - إلى أن الرسائل المتوفرة - وإن كانت قليلة - فهي تمثل نموذجاً مكتمل العناصر من حيث الشكل والمضمون، ما يدل على وجود تقاليد ديوانية راسخة، ساهم فيها أئمة الدولة أنفسهم بصفتهم كتاباً ومفكرين. الكلمات المفتاحية: الرسائل الديوانية، الدولة الرستمية، البنية الشكلية والمضمونية، التواصل الرسمي، الأدب العربي في الجزائر.

Abstract:

This study endeavors to explore the structural and thematic composition of official state letters (diwaniyya) during the Rustamid era,

The analysis focuses on the formal elements of these letters, including their introductory invocations and supplications, the central content that reflects political and religious directives, and the conclusions which often include prayers or direct orders.

The central question of the study is: to what extent Did the Rustamid period produce official literary prose that conformed to classical standards of Arabic administrative writing?

Using a descriptive-analytical methodology, the study draws on primary historical and literary sources, including *Al-Azhār al-Riyāḍiyya*, * and *Tārīkh al-Adab al-Jazā'irī*.

The significance of this work lies in its focus on a neglected aspect of Algerian literary heritage.

The study concludes that, despite the limited number of surviving documents, Rustamid letters exhibit a complete structure and stylistic coherence, indicating the presence of a refined bureaucratic writing tradition established by the imams themselves, who were both rulers and intellectuals.

Keywords: Diwan Letters, Rustamid State, Structural and Thematic Structure, Official Communication, Arabic Literature in Algeria.

1. مقدمة:

تتناول هذه الدراسة جانبًا مهمًا من التاريخ الأدبي الجزائري بعد الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط، وتسلط الضوء على مظاهر الحياة الثقافية والعلمية في الدولة الرستمية، مبينة اهتمام أئمة الدولة الرستمية بالعلم والثقافة والأدب، التي تُعدّ أول تجربة سياسية مستقلة في الجزائر خلال القرن الثاني للهجرة. فقد أبدى أئمة هذه الدولة اهتمامًا ملحوظًا بالعلم والمعرفة، وكان لهم دور بارز في رعاية مختلف أشكال التعبير الأدبي، وعلى رأسها أدب الرسائل، وبخاصة الرسائل والمكاتبات الديوانية، وكيف كانت هذه المكاتبات مطابقة لما عرف في هذا اللون النثري الذي له صفحات مضيئة في تاريخ الأدب العربي القديم خاصة. التي عكست - على قلتها - ملامح النثر الرسمي ومظاهر البلاغة الإدارية في تلك المرحلة المبكرة من التاريخ الإسلامي بالمنطقة.

وتسعى الدراسة إلى توثيق هذا اللون النثري وتحليله، من خلال الوقوف على بنية الرسائل الديوانية الرّسمية، من حيث الشكل والمضمون، وتفكيك مكوناتها الثلاثة الأساسية: المقدمات والاستفتاحات التي كانت تتضمن البسملة والدعاء والثناء، ثم المضامين التي كانت تعبّر عن التوجيهات السياسية والدينية، وأخيراً الخواتيم التي عادةً ما تنتهي بالدعاء أو السلام أو الأمر المباشر. وتنبثق من هذا الطرح مجموعة من التساؤلات المركزية، منها: هل كان هناك إنتاج نثري ديواني ممنهج في عهد الدولة الرّسمية؟ وما طبيعة هذا الإنتاج؟ ومن هم الكتّاب الذين تولوا صياغته؟ وما نوع الكتابة التي كانت موجودة في تلك الحقبة؟ وهل التزمت هذه الرسائل بالقوالب المعهودة في أدب الرسائل كما عرفته المدونات النقدية والبلاغية في التراث العربي؟

ومن أجل الإجابة عن هذه التساؤلات، تعتمد الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وذلك باستقراء النماذج المتوفرة من الرسائل الديوانية المنسوبة إلى أئمة الدولة الرّسمية، وتحليلها في ضوء التصورات النظرية لأدب الرسائل. وقد استندت الدراسة إلى جملة من المصادر التاريخية والأدبية، من أبرزها: كتاب الأزهار الرياضية، وسير الأئمة، وتاريخ الأدب الجزائري. وتكمن أهمية هذا البحث في سعيه إلى إبراز وجه من أوجه الكتابة الرسمية في الدولة الرّسمية، في ظل ندرة النصوص المحفوظة من ذلك العصر، وإعادة الاعتبار لهذا اللون النثري الذي لم يحظ باهتمام واسع في الدراسات الجزائرية الحديثة، باستثناء بعض المحاولات المحدودة في رسائل جامعية وأطروحات أكاديمية متفرقة لقلة قليلة من الباحثين الأكاديميين في رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه.

2. لمحة تاريخية:

تأسست الدولة الرّسمية في المغرب الأوسط، أو ما يعرف اليوم بالجزائر عام مائة وستين للهجرة بالمكان المسمى حالياً تيارت بالغرب الجزائري على يد عبد الرحمن بن رستم وكانت بداية التأسيس سنة ثمان وأربعين للهجرة (148هـ) خمس وستين وسبعمائة ميلادي (765م)، و تمت

بيعة عبد الرحمن بن رستم في سنة ستين ومائة للهجرة (160هـ) (776م)، فكان عبد الرحمن هو المؤسس لأول دولة إسلامية جزائرية مستقلة. وكان على قدر كبير من العلم والعمل والعدل والإعراض عن الدنيا، وكانت عنايته عظيمة برفع مكانة دولته، كما كان اهتمام خاص بفن المعمار، ومهتم بشؤون الرعية، والسهر على مصالحها، وبلغ من زهده أن رفض من أهل المشرق ما بعثوا به إليه من عشرة أحمال ذهباً، رغم أنه سبق أن قبل منهم هديتهم قبل ذلك في الوقت الذي كان في حاجة إلى المال أيام التأسيس، وكانت أيام حكمه أيام سلم وأمن وأمان على الرعية. وكان عبد الرحمن هذا قد وفد على إحدى القبائل الموجودة في بلاد المغرب الأوسط، فلما وصل إليهم رأوا فيه أنه يصلح لإمامتهم وقيادتهم فكان لهم ذلك وتم تأسيس دولة بني رستم.

1.2. اهتمام الرستميين بالعلم والثقافة:

وما إن استقرَّ الأمر لبني رستم وأسسوا دولتهم حتى بدأ اهتمامهم بالعلم والثقافة وإنشاء المدارس والمكتبات وإعمارها بالكتب من كل مكان، حتى صارت حاضرة من حواضر العرب والمسلمين المعروفة والمشهورة، ولم هناك دولة من الدول الإسلامية بالمغرب وصلت ما وصلت إليه حضارة دولة الرستميين فقد بلغت من التطور والازدهار في مختلف المجالات؛ المادية والعلمية حتى أنها كانت تقارن بمدن في المشرق والمغرب بلغت شأواً عظيماً في التمدُّن، مثل قرطبة وبغداد ودمشق من عواصم الدولة الإسلامية، وكانت تُدعى بعراق المغرب.

ومن صور اهتمامهم بالكتب والمكتبات ما ذكره أحد الباحثين ففي عاصمتهم تيهرت كان اهتمام رجال الدولة الرستمية يكاد يكون منحصراً في تأليف الكتب وشرائها. مما نتج عنه تكوين مكتبات كثيرة وضخمة بالعاصمة تيهرت، ومن أشهر تلك المكتبات "المعصومة" التي تذكر المصادر أنها كانت مملوءة بالكتب، في مختلف فنون المعرفة، وقد قام الاطميون بقيادة أبي عبيد الله الشيعي بتدميرها بالكامل بعد أن أخذوا ما فيها من كتب تخصُّ الصناعة والرياضيات والفنون الدنيوية ومما يذكر عن هذه المكتبة الضخمة أنها حوت آلاف المجلدات، يذكر بعض الباحثين أنها كانت ثلاثمائة ألف مجلد، منها ديوان تيهرت الذي ذكره الدرجيني صاحب كتاب الطبقات، وقيل إنه لم يبق منه ولا يعرف عنه شيء.

ولعلّ ما يثبت هذا ما فعله أئمة هذه الدولة الفتية في تلك الفترة أنهم شجعوا التأليف وزودوا مكتبتهم الشهيرة بالكتب فكانوا كلما ظهر بالمشرق كتاب يهمهم زدوا مكتبتهم به، ولا غرو في ذلك فقد كان جميع أئمتهم رجال حكم، ورجال علم، فالمؤسس عبد الرحمن كان عالماً وله تأليف في التفسير، وخليفته الأول قد برز في علوم الدين، وله مؤلف موسوم بـ: "نوازل نفوسة"، وهو مجموعة الفتاوى التي كان علماء نفوسة يستفتونه فيها، وأفلح ابنه نبغ في الأدب.

ونتيجة هذه الحركة العلمية و الثقافية الكبيرة التي شهدتها الدولة الرستمية انعكست على الحياة العامة في ظل هذه الدولة من تسامح مذهبي وديني دوغما تشدد أو تعصب أو تطرف، قل نظيره في كثير من الممالك و الدول الأخرى.

وبذلك عاشت هذه الدولة فترات سلم طويلة، جعلت منها ملاذا لكثير من أهل الطوائف والفرق الأخرى، جعلت منها حاضرة من حواضر العلم والمعرفة تنافس بهذه الميزة أرقى حواضر العلم في ذلك العصر.

وكان العلوم باللغة العربية التي كانت اللغة الرسمية للدولة الرستمية وبها تتم المعاملات الرسمية، أما الدروس في المساجد فقد كان يُلجأ فيها إلى اللهجة المحلية رغبة في إفهام الناس ممن لم تكن لهم ثقافة واسعة دراية باللغة العربية، وهذه اللهجة المحلية كان لها دور إلى جانب العربية إلا أنه دور ثانوي، فقد كانت تستعمل للمشافهة أكثر من استعمالها للكتابة.

وإلى جانب هذا الاهتمام باللغة العربية وجعلها لغة رسمية، فإن الرستميين كان لهم اهتمام باللغات الأخرى، وهنا يجدر بنا أن نذكر أن الأسرة الرستمية ذات الجذور الفارسية كانت تحسن الفارسية وتحافظ عليها باعتبارها لغة الأجداد ولغة الحضارة القديمة.

وبذلك ازدهرت الحياة الثقافية والعلمية والأدبية، وبنيت الدولة الرستمية صلات اقتصادية وثقافية مع غيرها من الدول، فأقامت علاقات مع السودان وأفريقية والأندلس وتنوعت الثقافة دينية وأدبية وعلمية، وأحاطها الرستميون بالعناية اللازمة والرعاية التامة، حتى غدت تيهرت تنافس بغداد في علمها وتطورها وريقها الحضاري، فأرسلوا البعثات العلمية إلى المشرق للتزود بالعلم والكتب في مختلف المجالات.

وظهر شعراء كثيرون في فترة الدولة الرستمية بالجزائر، من أبرزهم بكر بن حماد وابن الخراز، وابن أبي الرجال وغيرهم، أما في ميدان النثر فقد كان لأئمة الدولة الرستمية خطب ورسائل كثيرة منها ما نسبت للإمام أفلح بن عبد الوهاب، وهو فيها صاحب أسلوب سهل يسير و يتسم بالوضوح ويساير ما كان معروفا في عصره، ويواكب الظروف.

وتثبت المصادر التي أرخت لفترة بني رستم بالجزائر رسائل أخرى لغير واحدٍ من أئمة الدولة الرستمية الذين تداولوا على الحكم وكانت لهم مراسلات عديدة في ذلك العصر.

3. فن الترسل في العهد الرستمي:

1.3. مفهوم الترسل لغة واصطلاحاً:

أ/ تعريف الترسل: لغة: جاء في مختار الصحاح: «رَأْسَلُهُ مَرَاْسَلَةً» فهو (مُرَاسِلٌ) و (رَسِيلٌ). و (أَرْسَلُهُ) في (رِسَالَةٍ) فهو (مُرْسِلٌ) و (رَسُولٌ) والجمع (رُسُلٌ) و (تَرَسَّلَ) في قراءته إِتَادٌ¹

ب/ اصطلاحاً: قدّم الباحثون والدارسون كثيراً من التعريفات للترسل وفن الرسالة قديماً، ومن بينهم القلقشندي صاحب أكبر موسوعة تحدثت عن هذه الصناعة، حيث يقول: «فأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني من المكاتبات والولايات والمساحات، والإطلاقات، ومناشير الإقطاعات، والمُهدن والأمانات، والأيمان، وما في معنى ذلك ككتابة الحكم وغيرها»²

وعموماً فإن أدب الرسائل أو الترسل هو فن عرفته كل الآداب عند كل الأمم، غايته التواصل بين الناس والإبلاغ عن طريق الكتابة.

2.3. أنواعه:

الترسل نوعان: ديواني وإخواني.

أ/ الرسائل الديوانية: هي تلك المكاتبات التي تصدر عن ديوان الخليفة، والأمير، يوجهها إلى الولاة والعمال والقادة، بل قد يوجهها إلى الأعداء مرات مُنْذِراً ومتوعِّداً.³ وتتنوع الرسائل الديوانية لتشمل تولية العهد، وتولية القضاء، والولاة، وما يتصل بأمور الرعية، وتشمل أيضاً ما يكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهنية أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية إلى غير ذلك.

ب/ الرسائل الإخوانية: وهي ما يتبادل بين الأحاب والأهل والأصحاب في موضوعات تتعلق بالعلاقات الإنسانية كالتّهادي، والتعازي والبشارات، والشوق والحنين للأهل والأحاب، والإخوانيات جمع مفردة إخوانية تنسب إلى الإخوان، والمقصود بها المراسلات بين الأصدقاء.⁴

3.3. الخصائص البنائية للترسل الديواني:

تشكّل الرسالة الديوانية في أغلب الأحيان من بنائية تكاد تتشابه في كل الرسائل، وهي تتألّف من:⁵

- البسملة، والتّصليّة على النبي، وعلى آله وصحبه.
 - ذكر المرسل، والمرسل إليه، والدعاء لهما.
 - التّحية والتّحميد.
 - البعديّة.
 - الحمدلة.
 - التّصليّة.
 - إيراد خطبة بما فيها من دعاء.
 - ذكر مكان كتابة الخطاب، والدعاء له بالحماية.
 - ذكر تأريخ الرسالة، وهذا يكون في بعضها.
- وهذا في الحقيقة ليس ثابتاً في كل الرسائل الرّسمية، فقد يقع الحذف، أو التقديم أو التأخير، أو تكرار الدعاء أو غيرها.

4.3. بنية المقدمات:

عرفت الرسائل في بنائها الهيكلية تغييرات وتطورات مختلفة عبر مسيرته التاريخية الأدبية، منذ رسالة عبد الحميد إلى الكُتّاب إلى موسوعة القلقشندي، مروراً بكثير من المصادر التي نظرت لهذا النوع من النثر العربي، وفي هذا التنوع والاختلاف يقول الكلاعي: «ونظرت -أعزّك الله- في الاستفتاح فوجدته يختلف باختلاف الأزمان. فكانوا في الجاهلية يكتبون "باسمك اللهم". وروي عن زكرياء عن عامر قال: كان رسول الله ﷺ يكتب عنه ما تكتب قریش «باسمك اللهم» حتى

نزلت ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ﴾، فكتب: "بسم الله" حتى نزلت ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ فكتب "بسم الله الرحمن"، حتى نزلت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أثبتوها⁶ « فمقدمات الرسائل -ديوانية كانت أو إخوانية- تشتمل عادة بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ على المُرسِل والمُرسل إليه، وتتضمن الدعاء، إضافة إلى التحية التي تذكر قبل البعدية وقبل الختام. «ونظرت -أعزك الله- في صدور الرسائل واستفتاحها فوجدتها أيضا تختلف. فكانوا في الزمان الأول يكتبون في صدور رسائلهم: أما بعد. وهو فصل الخطاب...

واختلفت استفتاحات الرسائل، فنرى الكتاب يختارون الاستفتاح المناسب لمنزلة المُرسِل إليه، فقد يُذكر مُقَدِّمًا عن المُرسِل بصيغة: لفلان من فلان، وقد يُؤخَّر ذكره فيُكتب من فلان لفلان، وتكون في حالات أخرى بإيراد كنية المُرسِل إليه أو رتبته، غير أن كل الاستفتاحات كان يُراعى فيها الجودة والحسن والبراعة لأنها تقع في البداية، وهي أول ما يطرق السَّمْع من الكلام فيكون داعية للنشراح وإثارة انتباه المتلقِّي، وقد كان يُلجأ إلى المنظوم فُتُبْدَأُ الرسالة بأبياتٍ شعريةٍ لكتابها أو لغيره تدلُّ على المضمون العام لها وتختصره في كلماتها، وكثيراً ما يلجأ الكُتَّاب إلى الإشارة إلى غرض الرسالة في مطالعها ومقدماتها كعملية ربط وحسن تخلُّص .

5.3. بنية المضامين:

قد يشار في صدور الرسائل إلى الغرض المذكور منها، وينتقل الكتاب في رسائلهم إلى المراد منها، وبحسن تخلُّصٍ لطرق الموضوع الذي يريدون معالجته والمضمون الذي يريدون تبيانها في الرسائل، وفي غالب الأحيان يقع حسن التخلُّص بصيغة: أمّا بعد، وهي وقفة بين الابتداء والشروع في الموضوع المراد ذكره في الرسالة، وقد تنوعت المضامين في الرسائل الديوانية، ومست مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية، فكان كُتَّاب الدواوين يكتبون بتولية القادة والقضاة والأمراء، ويكتبون بمناسبة نصر جيوش المسلمين والتهنئة بذلك.

وقد يكون التخلُّص من صدر الرسالة إلى الغرض المذكور ببعض الألفاظ مثل «قولهم: كتبت، وكتابي، وكتابنا. كقولهم: "كتبْتُ وقد هبَّت ريحُ النَّصر من مِهْمِّها، والأرض مشرقةٌ بنور ربِّها"»⁷ هذا إذا كان في ابتداء الخطاب، أما في رد الجواب فإن الأمر يختلف أيضا ومما جاءوا به من العبارات في الرَّدِّ عن غرض الكتاب بعض الألفاظ مثل: أُلْقِي، وورد، ووصل، اقتباساً من القرآن الكريم.

ويأتي بعد ذلك الدعاء، وليس محموداً في الرسائل الإكثار منه لأن الزيادة والإكثار منه في الرسائل من أبرز الدلائل على ضعف بضاعة الكاتب في الصناعة. وبعد الحديث فيما يريد الكاتب قوله للمرسل إليه، وما يؤدُّ أن يضمنه في رسالته يأتي ختام الرسالة.

3.6. بنية الخواتيم والنهايات:

خواتيم الرسائل هي آخر شيء يكتب فيها، وتكون في الغالب الأعم بلفظ يدلُّ على نهاية الرسالة من مثل قول الكاتب "السلام" أو "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" وتكون في بعض الأحيان مسبقة بالدعاء، وكثير من المكاتبات والرسائل تشتمل على التأريخ باليوم والشهر والسنة الذي كتبت فيه الرسالة كعلامة على انتهاء الرسالة، وبعض الرسائل تؤرِّخ في البداية، وعادة ما يتم التأريخ بما مضى من الشهر باعتباره معلوماً، ويشترط في الاختتام ما يشترط في الابتداء من جودة وحسنٍ لأنَّه آخر ما يتبقَّى في الأسماع⁸.

على أن هذه العناصر المشكلة للهيكل البنائي للرسائل غير ثابتة ومستقرة، فقد يخرج كتاب الدواوين عن هذه الهيكلية في بعض الحالات.

4. الرسائل الديوانية الرستمية:

في الحقيقة إن فن الترسل في العهد الرستمي قليل جداً في المصادر والمراجع التي بحثت عنه فيها، ولكن ذلك لا يدل أن هذا العصر خلا من كتاب الرسائل، لكنه يدل أكثر ما يدل على أن كتب التاريخ والأدب لم تحتفظ لنا به بين طياتها، وقد أسعفني الحظ على أن أعثر على قليل من تلك الرسائل الديوانية التي كتبت في العهد الرستمي، وهي رسائل لأئمة بني رستم الذين تداولوا على حكم الدولة الرستمية، والرسائل ذات طابع سياسي، وهي رسائل ديوانية كان موضوعها يدور حول الحكم والسياسة وشؤون الدولة الرسمية، تحتكم إلى قواعد الكتابة الإنشائية المعروفة في الأدب العربي و تلتزم بنية وهيكلية الرسائل كما نظر لها النقاد القدامى، وسأبين فيما يأتي من سطور في هذه الدراسة هذه الرسائل وما اشتملت عليه مقدماتها ومضامينها وخواتيمها، ومجمل الرسائل التي بقيت من ذلك الزمن نجدها في المصادر التي أرخت للدولة الرستمية من أمثال "الأزهار الرياضية في ملوك وأئمة الدولة الرستمية"

وكتاب "الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية" لابن سلام الإباضي، والكتب التي نقلت عنهم من مثل "تاريخ الأدب الجزائري" لمحمد الطمار وغيرها.

ولا نجد أثراً للرسائل التي كُتبت وكانت هذه الرسائل ردّاً عليها، وتوجد إشارات إلى عديد الرسائل التي دونت في تلك الفترة وإلى كُتّابها ولكن لم يبق منها أثر، وبعض تلك الرسائل تضمنت جملاً وعبارات من الرسائل التي كانت ردّاً عليها، مثل ما جاء في إحدى رسائل أفلح بن عبد الوهاب إلى نفاث بن نصر: "أما قولك (تُبّ مما كتبت به) فهو منك عبثٌ" وبعض من تلك الرسائل كذلك تضمنت إشارات إلى أن فعل الكتابة والمراسلات كان كثيراً وشائعاً في العهد الرستمي، منها ما جاء في رسالة أفلح في شأن نفاث بن نصر، جاء فيها "وذكرتم أمر نفاث، وأكثرتم فيه من الكتب، ووصفتم عنه أشياء لا يشك أحدٌ منكم أنها بدعة"⁹

1.4. الخصائص البنائية للرسائل الديوانية الرستمية:

كانت الرسالة الوسيلة الوحيدة للتواصل في ذلك الزمان بما تحمل من أوامر وتعليمات للدولة، لكن تلك الرسائل التي تم تبادلها بين أئمة الدولة الرستمية وولايتها وقادتها، لم يبق منها إلا رسائل معدودة قليلة، قد لا تعطي صورة كاملة عن الترسل الديواني في تلك الدولة، وما بقي منها تناول موضوعات تهم شؤون السياسة والحكم؛ فبعضها تحدّث عن الفتن التي كانت تفتك باستقرار الرستميين، وبعضها كان موجهاً إلى جماعة المسلمين بالنصح والإرشاد والتوجيه، أما بخصوص بنائية تلك الرسائل، فالملاحظ أنها لم تخرج عن الهيكل المعروف لفن الترسل في الأدب العربي، فقد اشتملت على مقدمة، ومضمون وخاتمة، وفيما يلي من كلام سنفرد لكل وحدة من وحدات الرسالة كلاماً خاصاً بها.

2.4. بنية المقدمات:

تضمنت مقدمات الرسائل الديوانية الرستمية ما كان متعارف عليه في تلك الحقبة، فكانت تتضمن البسملة والصلاة والسلام على النبي -صلى الله عليه وسلم- والمرسل والمرسل إليه -وفي بعضها- تتضمن الحمد والثناء على الله بما هو أهله وسؤاله الصلاة على النبي الكريم، ومن أمثلة هذه المقدمة ما جاء في رسالة أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد، يقول بعد البسملة:

"من أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد، سلام الله عليك وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يُصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله ﷺ وعلى آله." ¹⁰
ومن أمثلها كذلك ما جاء في رسالة محمد بن أفلح إلى جميع رعيته إرشاداً ونصحاً، يقول بعد البسملة:

«من محمد بن أفلح إلى جميع من بلغه كتابنا من المسلمين، سلام عليكم وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله الصلاة والسلام على نبي الرحمة وهادي الأمة، صَلَّى الله عليه وسلم.» ¹¹
ومن نماذج تلك الرسائل الديوانية الرستمية ما كتبه الأمام عبد الرحمن بن عبد الوهاب إمام تاهرت إلى أهل طرابلس، والتي يقول فيها بعد البسملة:

«وهذه شريعة رسالة كتب بها عبد الرحمن بن عبد الوهاب إمام تاهرت إلى أهل أطرابلس. أما بعد: فإن الإسلام شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله والإقرار بما أنزل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة... فمن أقرّ للمسلمين بهذا وجبت ولايته ومودّته والاستغفار له ووجب حقّه ما لم يُحدّث حدثاً يُخرجه من ولاية المسلمين.» ¹²

والملاحظ على هذه الرسائل وهي من النوع الديواني الرسمي، قد اشتملت على ما أقره منظرو هذا النوع من الكتابة، من بسملة، وذكر المرسل والمرسل إليه، والدعاء، والتحميد إلى غير ذلك مما يجب أن تتضمنه الرسالة.

3.4. بنية المضامين:

يقع الانتقال في الرسائل الديوانية الرستمية من المقدمة إلى موضوع الرسالة بالصيغة المعروفة والمتداولة في الرسائل الرسمية والإخوانية، وهي: أمّا بعد، وهي من حُسن التّخلص من المقدمة للولوج إلى موضوع الرسالة، وقد كانت الرسائل الديوانية الرستمية التي حصلت عليها في المصادر والمراجع التي أُرّختْ للرستميين وتاريخهم السياسي والأدبي تصبُّ في قالب سياسي وديني باعتبارها رسائل رسمية صادرة عن ولاية الأمور من أئمة بني رستم، تشير إلى الأحداث والظروف التي عاشتها الدولة الرستمية من فتن وتمرد وغير ذلك، كما في رسالة الإمام أفلح بن عبد الوهاب في شأن نفاث بن نصر، وكذلك رسالة الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في مسألة "خلف بن السّمح" ومما يلاحظ على بعض تلك الرسائل أن فحواها كان دينياً وعظيماً، مثال ذلك رسالة عبد الوهاب إلى أهل

طرابلس يعرفهم فيها الإسلام، ويدعوهم إلى التمسك بالشرعية وموالاته أهل الهدى والبراءة من أهل الضلال، أما بعض تلك الرسائل فقد كان موضوعها نصح وإرشاد وتوجيه من أئمة بني رستم إلى ولّاتهم ورعيّتهم كما في رسالة أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد ينصحه ويوجهه ويحذّره في الوقت نفسه.

وهي رسائل أيضا لم تخرج عن البنية الهيكلية للرسائل الديوانية المعروفة من حسن تخلص من المقدمات إلى موضوع الرسالة الذي تنوعت موضوعاته بين السياسة والدين والنصح والإرشاد والتوجيه.

4.4. بنية الخواتيم:

ما قيل عن المقدمات والمضامين ينطبق أيضا على الخواتيم، فقد جاءت خواتيم رسائل بني رستم الديوانية على نفس الطريقة المعروفة في خواتيم الرسائل الرسمية في الأدب العربي، فنجد بعض تلك الرسائل تحتّم بجملي أمرية تفيد النصح والتوجيه مثل ما ورد في رسالة الإمام عبد الوهاب إلى جبل "نفوسة" في مسألة "خلف بن السمح"، حيث يقول: «توبوا إلى ربّكم وراجعوا التّوبة لعلكم تفلحون»¹³ وكذلك ما جاء في رسالة الإمام أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد حيث يقول: «فاتّق الله واجتهد جهدك في توفير الحقوق وتوجيهها إلينا على هذا مضى من كان قبلك»¹⁴ وبعض تلك الرسائل ختمها كتابها بالدعاء والصلاة على النبي ﷺ كما جاء ذلك في إحدى رسائل الإمام أفلح بن عبد الوهاب، يقول في ختامها: «عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ وَرَزَقَنَا الْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ فَإِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ، وَمُنْتَهَى الرِّغَائِبِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّهِ الْعَظِيمِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»¹⁵

واختتمت رسالة أخرى للإمام أفلح كذلك -وجهها إلى عامة المسلمين- بالدعاء والسلام، يقول فيها: «والله أسأل أن يوفّقنا وإيّاكم لطاعته والقيام بحقه برحمته إنّه قدير والسلام عليكم ورحمة الله»¹⁶

وهي كما يبدو، لا تخرج عن بنائية الرسالة الديوانية في خواتيمها كسابقاتها، فكلها التزم كُتّابها بما نظّر له العلماء والأدباء في هيكلية الرسالة الرسمية.

5. خاتمة:

في ختام هذه الدراسة تمكنا من الوصول إلى مجموعة من النتائج يمكننا إيرادها فيما يلي:

- عرف النثر الفني في الجزائري منذ عهود قديمة.
- تعتبر فترة بني رستم أولى الفترات التي عرف فيها الأدب الجزائري شعرا ونثرا.
- احترم كتاب الدواوين والرسائل ما كان متعارفا عليه في هيكلية بناء الرسائل.
- ما بقي من الرسائل الرستمية يمثل ما كتب من رسائل رسمية ديوانية صادرة عن الدولة الرستمية.
- يلاحظ أن كتاب الرسائل الديوانية هم أنفسهم أئمة الدولة الرستمية.
- رسائل بني رستم تنوعت بين الديني والسياسي.

الهوامش:

- 1 - الرازي، مختار الصحاح، تح يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية ببيروت لبنان، ط5، 1430هـ/1999م، مادة رسل.
- 2 - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، دار الكتب المصرية مصر، 1340هـ/1920م، ص54.
- 3 - ينظر: عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط2، بيروت لبنان، 1391هـ/1972م، ص223.
- 4 - ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج8، م س، ص126.
- 5 - ينظر: الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، 1993م، ص381.
- 6 - الكلاعي، إحكام صناعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس، تح محمد رضوان الداية، عالم الكتب، ط2، بيروت، 1405هـ/1985م، ص63.
- 7 - نفسه، ص78.
- 8 - ينظر: المرجع السابق، ص88 وما بعدها.
- 9 - ينظر: الباروني، الأزهار الرياضية، م س، ص64.
- 10 - الباروني، الأزهار الرياضية، م س، ص244.
- 11 - نفسه، ص316.

- 12 - ابن سلام الإباضي، تاريخ الإسلام من وجهة نظر إباضية، تح ر. ف. شفارتز، سالم بن يعقوب، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، بيروت لبنان، 1405هـ/1985م، ص107.
- 13 - الباروني، الأزهار الرياضية، م س، ص 196.
- 14 - نفسه، ص 245.
- 15 - الباروني، الأزهار الرياضية، م س، ص 245.
- 16 - نفسه، ص 286.

• قائمة المراجع:

- 01 - (1985م) تاريخ الإسلام من وجهة نظر إباضية، تحقيق : ر. ف شفارتز . سالم بن يعقوب. ط1. بيروت: دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة.
- 02 - (2002م) الأزهار الرياضية في ملوك وأئمة الإباضية. قسنطينة الجزائر: دار البعث.
- 03 - توات ، (1993م) أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- 04 - عتيق ، (1972م) في النقد الأدبي، ط2. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- 06 - (1920م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1 - ج8. بيروت / مصر : دار الكتب المصرية.
- 07 الرازي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر) القلقشندي، (أبو العباس -):
- 07 الرازي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر) مختار الصحاح، تح يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت.

- 08 - (1985م) إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبها في المشرق
والأندلس، تح محمد رضوان الداية. ط2. بيروت: عالم
الكتب.
- الكلاعي، (أبو
القاسم محمد عبد
الغفور الإشبيلي
-) :